الجرحُ والتّعديل

الأستاذ العالم العامل البحّاثة عالم الشام
الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي

١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ شارع سوريا بناية صمدي وصالحة
هاتف : ٢٩٥٥٠١ ـ ٢٤١٦٩٢ ص.ب : ٧٤٦٠ برقيا : بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

ميزان الجرح والتعديل

هذا بحث جليل ، ومطلب خطير ، طالما جال في النفس التفرغ لكتابة شيء فيه يكون لباب اللباب ، في هذا الباب ، الذي اختلف فيه الناس ، لما غلب التعصب على النفوس ، ونبذوا مشرب كبار المحدثين رواة السنة ، وهداة الامة ، حتى سنحت لي فرصة كتبت فيها ترجمة حافلة للإمام البخاري جعلتها مفصلة بتراجم متنوعة كان منها (تخريج البخاري عمن رمي بالابتداع) وهم الذين اسميهم « المبدّعين » [1] .

ذكرت ثمة ما يناسب تأليف الترجمة ، ثم رأيت أن المقام

(١) بتشديد الدال المفتوحة أي المنسوبين للبدعة وانما آثرنا هذا على تسمية الاكثرين لهم بالمبتدعين لأني لا أرى انهم تعمدوا البدعة لأنهم مجتهدون يبحثون عن الحق فلو أخطأوه بعد بذل الجهد كانوا مأجورين غير ملومين فلا يليق تسميتهم مبتدعة بل مبدعة كما سيمر بك البرهان عليه .

يستدعي زيادة بسط واسهاب ، ودَرْأ شبهٍ واحتمالات أوردها بعض الفقهاء خالف فيها الحقيقة ، فخشيت أن يطول بإيرادها - في ترجمة البخاري - الكلام ، ويشبه الخروج عن الموضوع ، فأفردت تتمة هذا البحث في مقالة خاصة تحيط به من اطرافه ، وترده على انحائه ، وهـــذا البحث من جملة المباحث العلمية التي نسيها الخلف أو أضاعوها ، ولا غرو ان يذهل عن الغايات ، من يقصر في البدايات ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

منشأ النبز بالابتداع :

من المعروف في سنن الاجتماع ان كل طائفة قوي شأنهـا ، وكثر سوادها ، لا بد ان يوجد فيهـــا الاصيل والدخيل ، والمعتدل والمتطرف ، والغالي والمتسامح ، وقد وجد بالاستقراء ان صوت الغالي اقوى صدى ، واعظم استجابة - لأن التوسط منزلة الاعتدال ، ومن يحرص عليه قليـل في كل عصر ومصر ، وأما الغلو فمشرب الأكثر ، ورغيبة السواد الاعظم ، وعليـه درجت طوائف الفرق والنحل ، فحاولت الاستئثار بالذكرى ، والتفرد بالدعوى ، ولم تجد سبيلاً لاستتباع الناس لها الا الغلو بنفسها ، وذلك بالحط من غيرها ، والايقاع بسواها ، حسب ما تسنح لهـا الفرص ، وتساعدها الاقدار ، ان كان بالسنان ، او اللسان .

وأول من فتح هذا الباب - باب الغلو في اطالة اللسان

بالمخالفين – الخوارج ، فأتى قادتهم عامتهم من باب التكفير – لتستحكم النفرة من غيرهم ، وتقوى رابطة عامتهم بهم ، ثم سرى هذا الداء الى غيرهم ، واصبحت غلاة كل فرقـــة تكفر غيرها وتفسقه ، او تبدعـه أو تضلله ، لذاك المعنى نفسه ، حتى قيض الله تعالى من الأئمة من قام في وجه أولئك الغـلاة ، وزيف رأيهم ، وعرف لخيـــار كل فرقة قدرهم ، وأقام لكل منهم ميزان امثالهم .

من شهر الرواية عن المبدعين ، وقاعدة المحققين في ذلك :

كان من أعظم من صدع بالرواية عنهم الإمام البخاري رضي الله عنه ، وجزاه عن الاسلام والمسلمين احسن الجزاء ، فخرّج عن كل عالم صدوق ثبت من أي فرقـة كان ، حـتى ولو كان داعية – كعمران بن حطـــان وداود بن الحصين . وملأ مسلم صحيحه من الرواة الشيعة [1] فكان الشيخان عليهما الرحمـــة والرضوان بعملهما هذا قدوة الانصاف ، واسوة الحق ، الذي يجب الجري عليه – لأن مجتهدي كل فرقة من فـــرق الاسلام مأجورون أصابوا أو أخطأوا بنص الحديث النبوي .

ثم تبع الشيخين على هذا المحققون من بعدهما حتى قال شيخ

(١) راجع شرح التقريب للنووي صفحة ١١٩ .

الاسلام الحافظ ابن حجر في شرح النخبة : التحقيق أن لا يرد كل مكفر ببدعته ــ لأن كل طائفة تدعي ان مخالفيها مبتدعة ، وقد تبالغ فتكفر ، فلو اخذ ذلك على الاطلاق لاستلزم تكفير جميع الطوائف (قال) والمعتمد أن الذي ترد روايته من انكر امراً متواتراً من الشريعة معلوماً من الدين بالضرورة ، واعتقد عكسه . وأما من لم يكن كذلك ، او ينضم الى ذلك ضبطه لما يرويه ــ مع ورعه وتقواه فلا مانع من قبوله إ هـ .

آفات الجرح الا بقاطع :

قال الامام ابن دقيق العيد : أعراض المسلمين حفرة من حفر النار وقف على شفيرها طائفتان من الناس : المحدثون والحكام .

وقال الامام النووي في التقريب وشارحه السيوطي: أخطأ غير واحد من الأئمة بجرحهم لبعض الثقات بما لا يجرح ــ كما جرح النسائي احمد بن صالح المصري بقوله : غير ثقة ولا مأمون . وهو ثقة إمام حافظ احتج به البخاري ووثقه الأكثرون ، قال ابن الصلاح : وذلك لان عين السخط تبدي مساوىء لها في الباطن مخارج صحيحة ، تعمى عنها بحجاب السخط ، لا ان ذلك يقع منهم تعمداً للقدح مع العلم ببطلانه ا هـ .

وقال الامام ابن دقيق العيد : والوجوه التي تدخل الآفة

منها خمسة : (احدها) الهوى والغرض وهو شرها ، وهو في تاريخ المتأخرين كثير . (الثاني) المخالفة في العقائد . (الثالث) الاختلاف بين المتصوفة وأهل علم الظاهر . (الرابع) الكلام بسبب الجهل بمراتب العلوم واكثر ذلك في المتأخرين ـ لاشتغالهم بعلوم الأوائل ، وفيها الحق والباطل . (والخامس) الاخذ بالتوهم مع عدم الورع . وقد عقد ابن عبد الرؤوف باباً لكلام الاقران المتعاصرين بعضهم في بعض ، ورأى أن أهل العلم لا يقبل جرحهم الا ببيان واضح [١] .

الوجوه التي يعرف بها ثقة الراوي :

قال السيوطي : قال في الاقتراح : [٢] تعرف ثقة الراوي بالتنصيص عليه من رواية، أو ذكره في تاريخ الثقات، أو تخريج أحد الشيخين له في الصحيح ، وان تكلم في بعض من خرج له فلا يلتفت اليه ، او تخريج من اشترط الصحة له ، أو من خرج على كتب الشيخين اه فتمت النعمة بتعديل رجال الصحيحين ونبذ كل وهم سواه ، وبذلك عرف للرجال فضلهم ، ولأولي العلم قدرهم ، وسن للناس طرح التعصب والتحزب ، والتصافح

---

(١) تدريب السيوطي صفحة ٢٦٢ .

(٢) كتاب في اصول الحديث للشيخ تقي الدين بن دقيق العيد (كشف الظنون) .

على الاخوة الايمانية ، وتبادل الآراء والأفكار ، واستماع الحكم ومدارك الاستنباط والاجتهاد من ذويها ، على هذا جرى أئمة الحديث ، وقادة الروايات ، الذين جمعوا ما جمعوا لدلالة الامة على هدي نبيها وسنة رسولها ﷺ في أقواله وأفعاله ، حتى اصبحت مرجع الفروع والاحكام ، ومعول الأئمة الاعلام .

زيادة ايضاح في حكمة التخريج
عن المبتدعين وفوائد ذلك :

ان تخريج أئمة السنة ، وحفاظ الهدي النبوي — حديث من نبذوا بالابتداع على طبقاتهم — فيه حكمة بليغة ، وفائدة عظيمة ، ألا وهي النهم بالعلم ، والسعي وراءه والجد في طلبه ، والتنبه لحفظه من الضياع ، وسن نبذ التعصب ، والتشيع والتحزب ، والتقاط الحكمة من أي قائل . قال حافظ المغرب الامام ابن عبد البر في كتاب جامع العلم وفضله في : (باب جامع في الحال التي تنال بها العلم) ما مثاله : وروينا عن علي رحمه الله انه قال في كلام له : العلم ضالة المؤمن ، فخذوه ولو من ايدي المشركين ، ولا يأنف احدكم ان يأخذ الحكمة ممن سمعها منه . وعنه ايضاً انه قال : الحكمة ضالة المؤمن يطلبها ولو في ايدي الشرط اهـ فأئمة الحديث رأوا ان السنة من الحكمة بل هي الحكمة — في تفسير الإمام الشافعي كما اوضح ذلك في رسالته

الشهيرة[١] في (باب بيان ما فرض الله من اتباع سنة نبيه ﷺ) — فلذا عمدوا الى تلقيها من كل ذي علم ، واشترطوا للعناية بها ان تكون من مسلم عدل صدوق ، ثبت في روايته ، ولم يبالوا بما غمز أو نبز او رمي به ، علماً بان المسائل النظرية ، أو التي دخل على اصولها تأويل بنظر المأول هي من المجتهد فيها والمجتهد مأجور اصاب او أخطأ ، فعلامَ يترك الاخذ عن المأجور ، وقد يكون رأيه هو الحق ، ومذهبه هو الادق — ما دام الامر فيه احتمال ولا قاطع ، أو اعترض النص ما رجحه ظاهراً — كما يعلمه من اعار نظر الانصاف مآخذ الأئمة ومداركهم — وقد اوضح جملا من ذلك الامام تقي الدين بن تيمية في كتابه : (رفع الملام ، عن الائمة الاعلام[٢]) فكان أئمة الحديث بهذا — اعني التلقي عن كل عالم ثبت — مثال الانصاف وكبر العقل ، وقدوة كل من يلتمس الحكمة ، ويتطلب العلم ، فجزاهم الله أحسن الجزاء .

عقوق الخلف بهجر مذهب السلف :

سبق اني قلت في هذا المعنى كلمة في كتابي (نقد النصائح

---

(١) مطبوعة مرتين .

(٢) مطبوع مرتين في الهند ومصر .

الكافية[1] بعد ان سبرت رجـــال من خرج لهم الشيخان أو أحدهما في صحيحيهما – ممن نبز بالابتداع – وهي قولي: فترى من هذا ان التنابز بالالقاب والتباغض لاجلهـــا الذي احدثه المتأخرون بين الامة عقوا به ائمتهم وسلفهم – أمثال البخاري ومسلم والامام احمد بن حنبل ، ومن ماثلهم من الرواة الابرار ، وقطعوا به رحم الاخوة الايمانية الذي عقده تعالى في كتــابه العزيز ، وجمع تحت لوائه كل من آمن بالله ورسوله ، ولم يفرق بين احد من رسله ، فاذن كل من ذهب الى رأي محتجاً عليه ، ومبرهناً بما غلب على ظنه ، بعد بذل قصارى جهده ، وصلاح نيته ، في توخي الحق ، فلا ملام عليه ولا تثريب – لأنه مأجور على أي حال ، ولمن قام عنده دليل على خلافه ، واتضحت له الحجة في غيره ، ان يجادله بالتي هي احسن ، ويهديه الى سبيل الرشاد ، مع حفظ الاخوة ، والتضافر على المودة والفتوة : هذا ما قلته ثمة ممـــا يبين انه لو كانت الفرق التي رميت بالابتداع تهجر لمذاهبها ، وتعادي لاجلها ، لما اخرج البخـاري ومسلم وامثالها لامثالهم . نعم إن هؤلاء المبدعين وامثالهم لم يكونوا معصومين من الخطأ حتى يعدوهم الانتقاد ، ولكن لا يستطيع احد ان يقول : انهم تعمدوا الانحـراف عن الحق ، ومكافحة

---

(١) مطبوع بدمشق .

الصواب عن سوء نية ، وفساد طوية، وغاية ما يقال في الانتقاد في بعض آرائهم : انهم اجتهدوا فيه فاخطأوا ، وبهذا كان ينتقد على كثير من الاعلام سلفاً وخلفاً لأن الخطأ من شأن غير المعصوم ، وقد قالوا : المجتهد يخطىء ويصيب : فلا غضاضة ولا عار على المجتهد ان اخطأ في قول أو رأي ، وانما الملام على من ينحرف عن الجادة عامداً معتمداً ، ولا يتصور ذلك في مجتهد ظهر فضله ، وزخر علمه .

رد القول بمعاداة المبدعين :

قدمنا ان رواية الشيخين وغيرهما عن المبدّعين تنادي بواجب التآلف والتعارف ، ونبذ التناكر والتخالف ، وطرح الشنآن والمحادة والمعاداة والمضارة ، لان ذلك انما يكون في المحاربين المحادين ، لا في طوائف . تجمعها كلمة الدين ، ومن الأسف ان يغفل عن هذا الحق من غفل ، ويدهش لسماعه المتعصبون والجامدون ، ويحق لهم ان يذعروا لهذا الحق الذي فاجأهم — لانه مات منذ قضى عصر الرواية والرواة ، وانقضى زمن المحدثين والحفاظ ، ودال الامر بعد الاخبار النبوية للآراء والاقوال ، وصار الحق — بعد ان كانت الرجال تعرف به — يعرف بالرجال ، واصبح مشرب أمثال البخاري وغيره نسياً منسياً ، ونشر لواء التعادي والتباغض في الامة وكان مطوياً ، وسبب على الأمة من التفرق والانقسام ، ما اورثها الضعف

والانفصام ، فبعد ان كان التسامح في التلقي عن الحكماء والفضلاء من اي طبقة - ركناً ركيناً في حضارة الاسلام ، خلفه التخاذل والتدابر والتعصب والملام ، ولم يكف ذاك حتى ادعي انه من الدين ، مع ان الدين يأمر بالتآخي ونبذ التفرق في محكم كتابه المبين .

(ومن العجب) ان يقول قائل : لا يلزم من الرواية عنهم عدم معاداتهم ، اي يجوز ان نروي عن راوٍ ، مع التدين بمعاداتنا له ، وبغضنا اياه !

(فنجيب عنه) بأنا لا نعرف من قال ذلك من السلف ، ولا من ذهب اليه من الائمة ، والرواية يراد بها هنا تلقي اقوال النبي ﷺ وسنته وهديه وتشريعه واقضيته ، وفتاويه وشمائله، لتتخذ ديناً يدان الله به ، وشريعة يقضى بها في التنازع ، ومرجعاً تحل به المشكلات ، فهل يتلقى ذلك عمن يجب علينا معاداته في الدين ؟ وكيف يتصور ان نأخذ الدين عمن نرى انه عدو للدين ؟؟ سبحان الله ما هذا التناقض ، ان من يأمرك الدين بأن تعاديه لا يبيح لك ان تأخذ دينك وشريعتك وعقيدتك عنه ، ومن المسلم بأن هذا الراوي أداه اجتهاده الى ما رأى ، ومن أداه اجتهاده الى ما رأى كيف يعادى ، وقد بذل قصارى جهده ، وليس قصده الا الحق ، والتقرب الى الله سبحانه وتعالى ، وكيف يعادى من اثبت له الشارع الاجر ولو

كان مخطئاً وانما يعادى الآثم لا المأجور .

رد القول بتفسيق المبدعين :

اغرب من ذلك قول البعض بتفسيق من يبدّعه ، وان بلغ ذروة الاجتهاد، واصبح معذوراً لا ملام عليه عند الله والملائكة والنبيين ، لا بل قد تفضل عليه الشارع بالاجر . ومتى عهد تفسيق مجتهد اذا اخطأ في المسائل الاجتهادية ؟ وهل يمكن لمثل البخاري – وهو ما هو في نقد الرجال – ان يضم الى صحيحه من مجتهدي الفرق من كان فاسقاً ليصبح جانب من كتابه مروياً للفسقة وقد جمعه ليجعله حجة بينه وبين ربه ؟ وهل يعقل ان يجعل رواية الفاسق حجة عند المولى ؟ هذا ما يلزم من تفسيق من يفسق من الرواة فليحكم المتعصب النظر ،وليتدبر في المآل، قبل ان يأخذ في المقال .

نعم ذهبت طائفة الى تفسيق من خالفهم في شيء من مسائل الاعتقاد – كما نقله الامام ابن حزم في كتابه الفصل[1] الا انه قول مردود ولذا قال الامام ابن حزم رضي الله عنه : وذهبت طائفة الى انه لا يكفر ولا يفسق مسلم بقول قاله في اعتقاد او فتيا ، وان كل من اجتهد في شيء من ذلك فدان بما رأى انه

---

(١) جزء ٣ ص ٢٤٧ .

الحق فانه مأجور على كل حال : ان اصاب الحق فاجران ، وان اخطأ فأجر واحد . قال : وهذا قول ابن ابي ليلى وابي حنيفة والشافعي وسفيان الثوري وداود بن علي رضي الله عن جميعهم ، وهو قول كل من عرفنا له قولاً في هذه المسألة من الصحابة رضي الله عنهم ، لا نعلم منهم في ذلك خلافاً اصلا ا هـ كلامه .

فأين هذا من التسرع في التفسيق ، وتقليد من قاله من المتأخرين المقلدين ، الذين ليسوا بأئمة متبوعين ، ولا قولهم حجة في الدين ، ولا استندوا الى دليل أو برهان (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) .

خطر النبز بالفسق ، ومعنى الفسق :

ان النبز بالفسق ليس بالأمر السهل ، لأن الفسق كثيراً ما جاء في القرآن الكريم مقابلاً للإيمان — كآية : (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً) وأمثالها ، ولذا قيل بأن عطف قوله تعالى « والفسوق » على قوله « والكفر » عطف تفسير — في آية : (وكره اليكم الكفر والفسوق) وان احتمل أن يكون غيره اشارة الى نوع آخر ، إلا ان النظائر والاشباه في موارده في التنزيل ، تدل على انه عطف تفسير ، وهب انه كان غير الكفر فو شيء قريب منه ، ونوع أنزل منه بدرجة ، وناهيك به .

وإليك ما قاله فيه أئمة اللغة وفلاسفتها . قال الجوهري في (الصحاح) : فسق الرجل فجر ، وفسق عن أمر ربه — أي خرج : وفي المصباح : فسق فسوقاً: خرج عن الطاعة ، والاسم الفسق ، ويقال : اصله خروج الشيء من الشيء على وجه الفساد يقال : فسقت الرطبة — اذا خرجت من قشرها وفي القاموس: الفسق الترك لأمر الله ، والعصيان ، والخروج عن طريق الحق ، أو هو الفجور — كالفسوق . (وقال الامام الراغب الاصفهاني في مفرداته) : فسق فلان : خرج عن حجر الشرع ، وذلك من قولهم فسق الرطب — اذا خرج عن قشره. وهو أعم من الكفر (قال) : والفسق يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير ، لكن تعورف فيما كان كثيراً ، وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقر به ، ثم أخل بجميع أحكامه أو ببعضه . وإذا قيل للكافر الأصلي فاسق— فلأنه أخل بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة ، (الى ان قال) : فاسق أعم من الكافر اه .

وقال الامام محمد بن مرتضى اليماني في كتابه (ايثار الحق) في (فصل في الفسق) ما نصه : واما العرف المتأخر : فالفسق يختص بالكبيرة من المعاصي مما ليس بكفر ، والفاسق يختص بمرتكبها اهـ .

فأنت ترى من هذا كله ان الفسق مدلوله الكبائر والمعاصي

العظائم لأنه دائر بين الكفر وما يقرب منه ، واذا كان هذا مدلوله الشرعي ، ومعناه العرفي ، فكيف يجوز ان يوصف به عالم ثبت ثقة من ذوي الالباب وأولي الاجتهاد لمجرد انه اداه اجتهاده الى رأي يخالف غيره مع انه لم يقصد الا الحق ، ولم يتوخ الا ما رآه الاوفق ، اذ لم يأل جهداً في اهتمامه بما يراه الصواب ، وان كان في نظر غيره على خلاف ذلك ، اذ هذا من لوازم المسائل النظرية ، ومتى عهد ان يفسق المخالف فيها أو يضلل ، لا جرم انه بدعة قبيحة ، وجناية في الدين كبيرة .

وقد قال كثير من ائمة التفسير في قوله تعالى : (ولا تنابزوا بالالقاب) هو قول الرجل للرجل : يا فاسق ، رواه ابن جرير عن مجاهد وعكرمة . وقال قتادة : يقول تعالى . لا تقل لاخيك المسلم ذاك فاسق ، ذاك منافق ، نهى الله المسلم عن ذلك وقدم فيه . وقال ابن زيد : هو تسميته بالاعمال السيئة – بعد الاسلام – زان فاسق (ثم قال ابن جرير) : والتنابز بالالقاب هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم او صفة ، وعم الله بنهيه ذلك ، ولم يخصص به بعض الالقاب دون بعض ، فغير جائز لاحد المسلمين ان ينبز اخاه باسم يكرهه ،أو صفة يكرهها (ثم قال) : وقوله تعالى : (ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون) اي ومن لم يتب من نبزه اخاه بما نهى الله عن نبزه من الالقاب او لمزه اياه او سخريته منه ، فاولئك هم الذين ظلموا انفسهم

فأكسبوها عقاب الله بركوبهم ما نهاهم عنه . ولما لم يكن عند من يرمي اخاه بالفسق الا الظن جاء النهي عن سوء الظن إثر تلك الآية في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم ان يأكل لحم أخيه ميتاً ؟ فكرهتموه . واتقوا الله ، ان الله تواب رحيم) ، ولما كان الرمي بالفسق مدعاة لتفرق القلوب وإثارة الشحناء ، على عكس حكمة الله تعالى في خلقه الخلق للتعارف والتآلف ، جاء ذلك على أثر ما تقدم بقوله سبحانه : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير) . فليتدبر المتقي هذه الآيات الكريمة وليقف عند أوامرها وزواجرها ، وليعتبر وليستعبر . قال السيد الطباطبائي في المفاتيح (١) : الفسق ان يتحقق بفعل المعصية المخصوصة — مع العلم بكونها معصية ، أما مع عدمه ، بل مع اعتقاد انه طاعة ، بل من امهات الطاعات فلا . والأمر في المخالف للحق كذلك — لأنه لا يعتقد المعصية ، بل يزعم ان اعتقاده من اهم الطاعات سواء كان اعتقاده صادراً عن نظر أو تقليد ، ومع ذلك لا يتحقق الفسق ، وانما يتفق ذلك ممن

---

(١) في النقل عن هذا السيد الامامي الكبير رحمه الله حجة على متعصبة الامامية في تفسيقهم مخالفهم أيضاً.

يعاند الحق – مع علمه به ، وهذا لا يكاد يتفق ، وان توهمه من لا علم له اه .

فترى من العجب بعد ما ذكرناه ان يوسم بالفسق من لا يحل وسمه به – لأن معناه لا ينطبق عليه بوجه مـا ، على انه ورد تسمية رواة الحديث خلفـاء فيما رواه الطبراني والخطيب وابن النجار وغيرهم عن علي مرفوعـاً « اللهم ارحم خلفائي الذين يأتون من بعدي ، يروون احاديثي وسنتي ، ويعلمونها الناس ».

اذا علمت هذا فماذا يقال في هؤلاء المفسقين ؟ أجهلوا المعنى العرفي للفسق ام تجاهلوا ؟ ام اجتهدوا فاداهم اجتهادهم ام قلدوا؟ لا غرو انهم جهلوا وقلدوا ، وياليتهم قلدوا اماماً متبوعاً ، بل قلدوا أواخر المقلدة الجـامدة المتعصبة . ولو نظروا في تراجم الرجال، وتدبروا سيرة كثير من اولئك المبدعين الابطال، لعلموا ان رميهم بالفسق يكاد ان يهتز له العرش . خذ لك مثـلاً من شيوخ المعتزلة عمرو بن عبيد،وانظر في ترجمته الى زهده وتقواه. قال الذهبي في الميزان : وقد كان المنصور الخليفة العباسي الشهير يخضع لزهد عمرو وعبادته يقول شعراً :

(كلكم يطلب صيد   غير عمرو بن عبيد)

وذكر ابن قتيبة في (المعارف) ان المنصور رثى عمرو بن عبيد فقال شعراً :

صلى الآله عليك من متوسد قبراً مررت به على مران

قبراً تضمن مؤمناً متحنفاً صدق الآله ودان بالقـرآن

لو ان هذا الدهر ابقى صالحاً ابقى لنـــا حقـــاً ابا عثمان

هذا هو التوثيق – اعني توثيق الملوك – لأن كلام الملوك ملوك الكلام . وما غمز به فـكله – ان انصفت – من عصبية التمذهب والجمود في التعصب .

نحن لا نقول هذا تحزباً للمعتزلة او لغيرهم معـاذ الله فإنا في الرأي مستقلون ، ولسنا بمقلدين ولا متحزبين، ولكن هو الحق والانصاف ، وما قولك في قوم يرون مرتكب الكبيرة كافراً او مخلداً في النار ؟ اليس في هذا نهاية التعظيم للدين ، وغـــاية الابتعاد عن المعاصي ، والإشعار بامتلاء القلب من خشية الله بما يزع عن الكذب والافتراء ؟ بلى ! وألف بلى ! فـاني يستجيز عاقل بعد ذلك تنسيقهم وهم على ما رأيت من التمسك بدين الله، والتصلب في المحافظة على حـدوده ؟ فتدبر وانصف ، على ان خبر الفاسق مرغوب عنه في نظر العقل ، ساقط الاحتجاج به في اصول الشرع ، ولذا امرنا بان نتبينه ولا نلوي عليـه بادىء بدء ، فكيف يحكم صاحبه في السنة والاحكام ؟

قال الامام الحجة مسلم – في مقدمة صحيحه في باب وجوب

الرواية عن الثقات ، وترك الكذابين ، والتحذير من الكذب على رسول الله ﷺ – ما مثاله : اعلم وفقك الله ان الواجب على كل احد عرف التمييز بين صحيح الروايات وسقيمها، وثقات الناقلين لها من المتهمين – ان لا يروي منها الا ما عرف صحة مخارجه ، والستارة في ناقليه ، وان يتقي منها ما كان عن أهل التهم ، والمعاندين من أهل البدع[1] (قال) والدليل على ان الذي قلنا من هذا هو اللازم دون ما خالفه قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوماً بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) وقال (واشهدوا ذوي عدل منكم) قال : فدل بما ذكرنا من هذه الآي أن خبر الفاسق ساقط غير مقبول ، وان شهادة غير العدل مردودة . والخبر ان فارق معناه معنى الشهادة في بعض الوجوه ، فقد يجتمعان في اعظم معانيها – اذ كان خبر الفاسق غير مقبول عند أهل العلم ، كما ان شهادته مردودة عند جميعهم . ثم روى

---

(١) من هنا يعلم ان رواة الصحيحين المتكلم فيهم لا يوصفون بالابتداع – لأن مسلماً رحمه الله اوجب أن لا يروى عن مبتدع ، فبالاولى البخاري – لأن شرطه ادق ، ولذلك قلت في عنوان المقالة (المبدعون) اعلاماً بأن خصومهم لقبوهم بالمبتدعة ، والا فهم مجتهدون والمجتهد وان اخطأ لا يوصف بالابتداع – كما أسلفناه ، ونبسطه الآن اه منه .

عن سلام قال بلغ ايوب اني آتي عمراً[1]، فاقبل علي يوماً فقال: ارأيت رجلا لا تأمنه على دينه ، فكيف تأمنــه على الحديث . فدل ذلك على ان من ائتمنه الشيخان على الحديث ، فقد ائتمنوه على الدين ، ومن ائتمن على الدين فليس فاسقاً ولا مبتدعاً .

(ثم قال الامام مسلم) وانما ألزموا – يعني العلماء– انفسهم الكشف عن معايب رواة الحديث وناقلي الاخبار وافتوا بذلك حين سئلوا – لما فيه من عظيم الخطر اذا الأخبار في امر الدين انما تأتي بتحليل او تحريم ، او امر ، او نهي ، او ترغيب ، او ترهيب ، فاذا كان الراوي لها ليس بمعدن للصدق والامانة ، ثم اقدم على الرواية عنه من قد عرفه ، ولم يبين ما فيه لغيره ممن جهل معرفته كان آثماً بفعله ذلك ، غاشاً لعوام المسلمين ، اذ لا يؤمن على بعض من سمع تلك الاخبار ان يستعملها ، او يستعمل بعضها ، ولعلها او اكثرها اكاذيب لا أصل لها، مع ان الاخبار الصحاح من رواية الثقات واهل القناعة اكثر من ان يضطر الى نقل من ليس بثقة ولا مقنع اه .

فهل بعد هذا يجوز غمز بعض من روى لهم الشيخــان من

---

(١) هو عمرو بن عبيد المتقدم وكلام ايوب فيه من كلام المعاصرين بعضهم في بعض وهو مطروح كما نبه عليه ابن عبد البر في كتاب جامع العلم .

اولئك الاعلام المبدعين ؟ لا جرم انه لأمر مـا عني البخاري ومسلم بالتخريج عنهم ، واخذ السنة منهم ، وتبليغها للأمة ، وجعلها حجة بينه وبين ربه ، ومـا ذاك الا اجلالاً لفضلهم ، وانصافاً لقدرهم .

انظر كيف يتحمل مثل البخـــاري عن اعلام الشيعة ، والمعتزلة والمرجئـة ، والخوارج ، ويجعل حديثهم حجـــة ، ومرويهم سنة ، ويفخر بذكر اسمائهم في اسانيده ، ويخلد لهم اجمل الذكر ، في اشرف مصنف . انظر هذا وقابل بينه وبين جمود المتـأخرين ، ورميهم علمـــاء الفرق بالفسق والابتداع والضلال ، وهجرهم لعلومهم ، وصد الناس عنهم ، حتى فـــات الناس – واأسفا – علم جم ، وخير كثير ، ولئن دوّن ما دون من معارفهم ، فما بقي من فوائدهم في خزائن صدورهم مما كان يستثار بالاخذ عنهم ، وينال بمجالسهم – اوسع واوفر ، افليس في جمود هؤلاء على ما ذكر عقوق لسلفهم الصالح ؟ بلى ! وما يضرون الا انفسهم لو كانوا يشعرون ، بمـا ذكرناه استبان لك الخطأ في نبز رواة الصحيح بالفسق والابتداع ، وانه تعصب يجب التنبيه له ، والحذر منه . نحن انما نصدع بهذا – تفقهـــاً من مشرب البخاري ومذهبه ، وموافقة له في رأيه الذي لا نشك في انه الصواب الذي تدعو اليه الأخوة الايمانية ، والانصاف مع مع كل راوٍ مجتهد من هذه الامة لا يروم الا الحق ، ولا يسعى

الا اليه ، ولا يتحمل الأذى والاضطهاد الا لأجله – اذ لم يصب من رأية وما دعا اليه لا دنيـــا ولا جاهاً ، ولا ملكاً ، فأي دليل ادل على حسن نيته من هذا ؟ وبالجملة فتسمية المتفقهـــة بعض الرواة فسقة جهل بما قاله الاصوليون من أن الفـــاسق مردود الشهادة والرواية[1] ومن قبل الشيخان وغيرهمـــا خبره وحكموه في السنة ، واخذوا عنه ، فهل يكون فاسقاً ؟ على ان اجماعهم على تلقي الصحيحين بالقبول موجب لتعديـــل رواتهما جميعاً – لأن التلقي بالقبول فرع صحة الحديث ، وهو انمـــا يكون من صحة سنده ، وهو من عدالة رجاله وتوثيقهم . ولذا قالوا فيمن خرج له الشيخان : جـــاز القنطرة . بمعنى انه لا يلتفت الى مـــا غمز فيـــه . وبالجملة فمشرب المحدثين في التسامح ونبذ التعصب هو الذي تقتضيه الاصول ، وتقبله العقول ، وما احدث من النبز بالفسوق للبعض فلا سند له – لأن دعوى فسق الانسان انما يكون باتيانه مـــا فسقه الشارع به ، ونص عليه كتاب او سنة نصاً قاطعاً لا يحتمل التأويل ، وامـــا مسائل الاجتهاد فلا يصح ذلك فيها بوجه من الوجوه .

والحاصل ان لا تفسيق ولا تضليل، مع الاجتهاد والتأويل،

---

(١) المستصفى ج ١ ص ١٥٨ .

وان كان ليس كل اجتهاد صواباً ، ولا كل تأويل مقبولاً ، ولكن كلامنا في ذات المجتهد والمأول .

فمن لم يأل جهداً فلا ملام عليه ولا كلام ، لا بل يتحمل منه الدين ، ويتلقي عنه الهدي النبوي ، ويحكم في السنة ، على هذا جرى البخاري ومسلم وغيرهما من اقطاب الحديث والاثر ، وهو الصواب ، بلا ارتياب . وقد نقل الغزالي في المستصفى[1] عن الشافعي انه قال : تقبل شهادة أهل الأهواء الا الخطابية من الرافضة ، لانهم يرون الشهادة بالزور لموافقيهم في المذهب (ثم قال) ويدل على مذهب الشافعي قبول الصحابة قول الخوارج في الاخبار والشهادة ، وكانوا فسقة متأولين ، وعلى قبول ذلك درج التابعون — لأنهم متورعون عن الكذب ، جاهلون بالفسق اه.

فترى من هذا ان الصحابة قبلوا خبرهم ، وما ضرهم تسمية الفقهاء لهم بالفسقة ، لأنه فسق بمعنى مخالفة غيرهم ، وهذا الاطلاق اصطلاحي للفقهاء ، وربما رجع الخلاف — في تسمية اولئك فساقاً — لفظياً ، والا فيستحيل ارادة الفسق الحقيقي المانع للشهادة والرواية — كما قدمنا — ومعلوم انه لا يكون

(١) ج ١ ص ١٦٠ .

مذهب حجةً على مذهب ، ولا عُرْفُ برهاناً على عرف ، وانما الحجة والبرهان قواطع الكتاب والسنة . ولما كان البحث المذكور في غاية من الدقة ، ترى الكلام في مطولات الاصول مضطرباً متشعب الاقوال، حتى اختلفوا لذلك في ماهية العدالة ويقرب لمذهب المحدثين فيها قول بعض أهل العراق : العدالة عبارة عن اظهار الاسلام فقط– مع سلامته عن فسق ظاهر اه.

جواب شبهة :

رب قائل يقول : كيف لا يفسق هؤلاء وقد خالفوا بتأويلهم النصوص من الكتاب والسنة ؟

فنقول : قدمنا ما يمنع تسميتهم فسقة شرعاً ولغة ، ولذا جاء في مسلّم الثبوت – من كتب الاصول – ما مثاله : لك ان تمنع كون المتدين من اهل القبلة فاسقاً بالعرف المتقدم الذي عليه القرآن الكريم – وهو شموله للكافر والمؤمن المرتكب الكبيرة اه .

وقال حجة الاسلام الغزالي في الاحياء : مهما اعترضت على القدري في قوله « الشر ليس من الله » اعترض عليك القدري ايضاً في قولك « الشر من الله » ، وكذلك في قولك « ان الله يرى » وفي سائر المسائل ، اذ المبتدع محق عند نفسه ، والمحق

مبتدع عند المبتدع ، وكلٌ يدعي انه محق وينكر كونه مبتدعاً اه .

وبالجملة فهم مخالفون بنظر غيرهم ، واما عند انفسهم فغيرهم هو المخالف وهم الموافقون ، وحاشا لمؤمن عالم ان يخالف كتاباً او سنة عامداً متعمداً ، فهم مجتهدون مثابون اذ لم يألوا جهداً فيما ذهبوا اليه ، وان كنت لا تقول به وترى الحجة فيما انت عليه ، على ان ما تسميه انت نصاً هم يرونه ظاهراً ، اذ دعوى نصيته الشيء ليست بالامر اليسير — لأن النص هو القاطع في معناه ، المفيد لليقين في فحواه ، وهذا انما يكون في محكمات الدين ، واصوله التي لم يختلف فيها الفرق كلها ، وأما ما عداه فكلها ظواهر ، وقد يراها البعض باجتهاده نصاً ، وليس اجتهاد مجتهد بقاضٍ على اجتهاد آخر . وعلى من يريد تحقيق هذا ان يراجع مطولات الخلاف ، ويطالع مآخذ المجتهدين ، ومن انفع ما الف في هذا الباب كتاب (رفع الملام ، عن الائمة الاعلام) لشيخ الاسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله فانه جدير لو كان في الصين ان يرحل اليه ، وان يعض بالنواجذ عليه ، فرحم الله من اقام المعاذير للائمة ، وعلم ان سعيهم انما هو الى الحق والهدى — كما اسلفنا — وبالله التوفيق .

جواب شبهة اخرى :

يزعم بعضهم بأنه : يحتمل ان يكون الراوي تحمل عن

المبدّع قبل تمذهبه بذلك المذهب ، وهذا جهل بمذاهب الرواة، ومشارب الرجال ، فان كل من الف في نقد الرجال لم يذكر في المشاهير منهم انه كان على مذهب كذا ، او ان الحافظ الفلاني تحمل عن فلان قبل تمذهبه بمذهب كذا ، ومثل هذا انما يؤخذ عن النقلة الاثبات كالمصنفين في أحوال الرجـــال ، ولا يمكن الاجتهاد فيه بحـال من الاحوال ، ولذا تراهم يقولون في ترجمـة الراوي : كان خارجياً . ونحو ذلك قولاً واحداً . وحبذا ان يكون ما ذكره مأثوراً عن امام مؤرخ مشهور . واما القول بالاحتمال ، فاذا فتح اورث الاضمحلال ، لكل ما يعول عليه في الاستدلال ، — ومثل ذلك ما يقال : يحتمل ان يكون روي عنه وهو غير عالم بما هو عليه من فساد العقيدة ! فهذا يزيد عما قدمنا من الجهل بمذاهب الرواة تجهيل أئمة الحديث ، ووصمهم بما هم براء منه من الغبـــاوة والبلاهة ، وانهم يتحملون عمن لا يعرفون مذهبه ولا مشربه ، وانهم كحاطب ليل ، نعوذ بالله من ذلك . وأي عاقل يجرأ على مثل ذلك في البخاري صاحب التاريخ في الرجال ؟ بل من دونه من ارباب السنن وغيرهم ممن تكلم في الجرح والتعديل ، وميز بين صحيح الحديث وضعيفه — لثقة رجاله أو ضعفهم . وهـل يعقل في صحـــاح ، وسنن ، ومسانيد ، وموطآت ، عليهـا مدار أدلة الاحـكام ، وحجج الفروع ، صنفت على الاسانيد المنوعة والمكررة بالاسماء والكنى

والالقاب - ان يكون جامعوها لا يدرون مشرب رجالها ولا ما يتحملونه - مع ان العامي والامي نراه اذا خدم عالماً لا يخفي عليه مشربه ومذهبه ورأيه وفكره. فكيف بعالم مؤلف، لا بل بامام مجتهد يستنبط الاحكام من الاحاديث ويترجم عليها، ويزاحم من تقدمه من الائمة في التخريج والرد والاستدراك والتفريع والتأصيل ؟ الا يدري مذهب رجال اسناده ونحلتهم - وهم عمدته في الاستدلال ، وركنه في الاحتجاج ؟؟ بلى ! ثم بلى ! وهو اجلى من ان يبرهن عليه ، او يرد على من كابر فيه . ولقد كان علم الجرح والتعديل ، ومعرفة طبقات الرجال وتراجمهم من اوائل ما يدريه طلاب الحديث ومريدو التحمل عن الحفاظ ، ولكن من اين يدري ابناء هذا الجيل ، ما كان عليه السلف من فنون التحصيل ، وقد اندرست تلك العلوم ، ولم يبق منها الا الرسوم ، فإنا لله وإنا اليه راجعون .

وأما قول بعضهم : فكيف يستدل بإخراج الشيخين على عدم جواز المعاداة - مع قيام هذه الاحتمالات ؟ وكيف يسوغ للانسان ان يتمسك بالمحتمل الذي لا تقوم به حجة ؟ فقد علمت سقوط هذه الاحتمالات ، وانها اشبه بالاوهام والخيالات ، والتلاعب في الحقائق الواضحات . والمحتمل الذي تقوم به حجة هو الذي يتطرق اليه احتمال معقول ، أو تأويل مقبول ، جار على قوانين التأويلات ، والأوجه المعروفة في نظائره .

واما احتمال في مقابلة حقيقة ثابتة ، وأمر واضح ، فلا يقـال له احتمال ، وإنما هو تلاعب وهوس خيال ، يقول أئمـة الجرح والتعديل في كتبهم عن راو – ممن خرج له الشيخان أو احدهما – انه شيعي ، أو خارجي ، أو قدري ، أو مرجىء ، ثم يأتي من يريد ان ينقض هذا بالاحتمال ، وهو لم يضرب في هـذا الفن بسهم ، ولا يمكن ان يرجع اليه في رأي ولا علم ، كيف لا وقد اجتمعوا على الرجوع الى أئمة الفن في هذا الباب ، لأنه أمـر لم يبق فيه مجال ولا نظر ولا احتمال ، وهذا من البديهيات الغنية عن الحجة والبرهان .

رفع وهم في عبارة للبخاري :

وأما زعم ان قول البخـاري في جزء رفع اليدين : « كان زائدة لا يحدث الا أهل السنة اقتداء بالسلف » : يخالف مـا استنبطناه – فعجيب جداً لأنه لا شاهـد فيه ، ولا ينـاسب بحثنا حتى يخـالفه ، لأن زائدة رحمه الله كان يمتنع عن تحديث غير أهل السنة – أي إسماعهم الحديث واقرائهم اياه – وذلك في التلاميذ منهم والمبتدئين في طلب الحديث الذين يبغون التلقي والسماع – وقد انتموا الى غير مذهب أهل السنة ، فكان زائدة يتجافى تحديثهم اقتداء بمن رآه من سلفه كذلك ، ولا منازعة في الوجدانيات ، ولا يكلف المرء ما لا يطيقه ، فمن كانت نفسه

لا تحب إسماع من كان كذلك ، فله الخيرة ولا جناح عليه في ترك الاسماع ، لاسيما لتلاميذ لم يتأهلوا بعد للنظر والوقوف على التحقيق ، فمثلهم انما يكون مقلداً لا مجتهداً . وأما حفاظ شيوخ ، ذوو علم ورسوخ ، اوتوا من العلم والفضل ما أهلهم للتحمل عنهم ، والاستفادة من علمهم ، بحيث طارت شهرتهم ، وتفوقوا على غيرهم ، فلا دخل لكلام زائدة فيهم ، ولا يشملهم مشربه ، وهكذا نحن نقول : لا ينبغي لاستاذ ان يشرح صدره لتلاميذ اغرار ، انتحلوا غير ما يراه الحق بدون نظر أو فكر ، بل تقليداً أو اتباعاً لكل ناعق .

وأما من بلغ مرتبة الرسوخ والافادة ، وكان على جانب عظيم من العلم ، وانتحل ما انتحل عن اجتهاد ونظر ، فلا يرتاب أحد في العناية بالأخذ عنه ، والتلقي منه ، كما فعل الأئمة أمثال البخاري وأشياخه ، فكلام زائدة من واد ، وما نقوله من واد آخر . وهكذا يقال فيمن حكى عنهم من المرجئة من أهل بلخ ، وأما قوله : ولقد رأينا غير واحد من أهل العلم يستتيبون أهل الخلاف ، والا أخرجوهم من مجالسهم . فهو يعني به من ذكرناه من التلاميذ لقوله « وإلا أخرجوهم » وهل يخرج الا المتعلم الضعيف في العلم والفهم ، المتطفل على ما ليس له بأهل ؟ وشتان بين من يخرج من مجلس الحديث من أهل الخلاف وبين من يرحل اليه ويتحمل عنه منهم — كرجال

الشيخين وغيرهما من هؤلاء ، ولو اطرد الابتعاد عن هؤلاء أو إبعادهم لما تلقى عنهم امثال الشيخين ، وخلد أسماءهم ومروييهم في أصح الكتب بعد التنزيل الكريم. وقد يكون مراد البخاري بأهل الخلاف أهل الرأي جموداً وتقليداً المؤثرين آراء الفقهاء على صحيح السنة – لأن كتابه المذكور وهو « جزء رفع اليدين » في مناقشة أهل الرأي وحججهم بصحيح السنة على رأيهم . وقد تجافى أرباب الصحاح الرواية عن أهل الرأي [1] فلا تكاد تجد اسماً لهم في سند من كتب الصحاح او المسانيد او السنن ، وان كنت أعدُّ ذلك في البعض تعصباً ، اذ يرى المنصف عند هـذا البعض من العلم والفقه ما يجدر أن يتحمل عنه ، ويستفـاد من عقله وعلمه ، ولكن لكل دولة من دول العلم سلطـة وعصبة ذات عصبية ، تسعى في القضاء على من لا يوافقها ولا يقلدها في

---

(١) كالإمام ابي يوسف والإمام محمد بن الحسن فقد فقد لينهما أهل الحديث– كما ترى في ميزان الاعتدال ، ولعمري لم ينصفوهما وهما البحران الزاخران ، وآثارهما تشهد بسعة علمهمـا وتبحرهما ، بل بتقدمهما على كثير من الحفاظ . وناهيك كتاب الخراج لأبي يوسف وموطأ الإمام محمد . نعم كان ولع جامعي السنة بمن طوف البلاد ، واشتهر بالحفظ ، والتخصص بعـلم السنة وجمعها ، وعلماء الرأي لم يشتهروا بذلك لا سيما وقد أشيع عنهم انهم يحكمون الرأي في الاثر، وان كان لهم مرويات مسندة معروفة ، رضي الله عن الجميع ، وحشرنا واياهم مع الذين انعم الله عليهم .

جميع مآتيها ، وتستعمل في سبيل ذلك كل ما قدر لها من مستطاعها ، كما عرف ذلك من سبر طبقات دول العلم، ومظاهر ما أوتيته من سلطان وقوة . وقد وجد لبعض المحدثين تراجم لأئمة أهل الرأي يخجل المرء من قراءتها فضلاً عن تدوينها ، وما السبب إلا تخالف المشرب على توهم التخالف ، ورفض النظر في المآخذ والمدارك ، التي قد يكون معهم الحق في الذهاب اليها ، فإن الحق يستحيل ان يكون وقفاً على فئة معينة دون غيرها ، والمنصف من دقق في المدارك غاية التدقيق ثم حكم بعد .

ومما نعده تعصباً ما حكاه الامام البخاري في « جزء رفع اليدين » المذكور من اخراج أهل الخلاف من مجالس الحديث حتى يستتابوا ، وحمل قاضي مكة سليمان بن حرب على الحجر على بعض علماء الرأي من الفتوى ، وما ذلك الا من سلطة دولة الأثريين وقتئذ ، وقيامهم بالتشديد ضد غيرهم ، ونبذ التسامح الذي كان عليه الصحابة والتابعون في ان يفتي كل بما يراه بعد بذل جهده في المسألة دون تعنيف او اضطهاد — لا جرم ان سنة كل قوم — آنسوا من انفسهم قوة وسلطاناً — ان يستعملوا لبث مذهبهم ونشره هيمنة الحاكم وسيطرته ، ولا سيما اذا كان منهم وعلى شاكلتهم وهو مستبد في علمه وما يمضيه فحدث هناك ولا حرج . انظر الى القدرية لما دالت لهم دولة

العلم أيام المأمون ماذا جرى منهم مع من لم يقل بشربهم ولم يستجب لدعوتهم ، فقد ضربت أئمة وأهينوا وسجنوا الأعوام وأوذوا مما دونه التاريخ وأحصاه على هؤلاء المتعصبين ، وكان نقطة سوداء في تاريخ حياتهم ، وان كانوا يزعمون مقاومة الحشو والجمود ، وتنوير الأذهان بعلوم الأوائل مما أخذوا بتعريبه ، وجهدوا في نشره ، الا ان الغلو كان رائدهم ، والبطش قائدهم، ولكن هي السكرة ، التي يذهب معها صحيح الفكرة (اعني سكرة الدولة والغلبة ، والسلطة والقوة) فما من دولة الا ونقم عليها شيء من ذلك – كما يدريه من سبر اخبار الدول وفلسفة حياتهم ، ومظهر آرائهم وآمالهم .

وكذلك قل عن الفتنة التي فرّ من أجلها إمام الحرمين من العراق الى الحجاز حينما دالت دولة الحنفية ، وثارت عصبيتهم على الشافعية والاشعرية . قال التاج السبكي في طبقاته [1] في ترجمة الإمام أبي سهل الشافعي : انه لما بلغ من سمو المقام ان أرسل اليه السلطان الخِلع وظهر له القبول عند الخاص والعام حسده الاكابر وخاصموه، فكان يخصمهم ويتسلط عليهم (قال) فبدا له خصوم واستظهروا بالسلطان عليه وعلى اصحابه (قال) وصارت الاشعرية مقصودين بالإهانة والمنع عن الوعظ

---

(١) في ترجمة محمد بن هبة الله بن محمد بن الحسين الإمام الكبير ابو سهل جـ٣ ص ٨٥ و ٨٦ ،

والتدريس ، وعزلوا من خطابة الجامع – (قال) وتبع من الحنفية طائفة اشربوا في قلوبهم الاعتزال والتشيع ، فخيلوا الى أولي الامر الإزراء بمذهب الشافعي عموماً، وبالأشعرية خصوصاً – (قال) وهذه هي الفتنة التي طار شررها ، وطال ضررها ، وعظم خطبها ، وقام في سب اهل السنة خطيبها ، فان هذا الأمر ادي الى التصريح بلعن اهل السنة في الجمع ، وتوظيف سبهم على المنابر ، وصار لابي الحسن الاشعري بها اسوة بعلي بن ابي طالب رضي الله عنه ، واستعلى اولئك في الجامع ، فقام ابو سهل في نصر السنة قياماً مؤزراً ، وتردد الى المعسكر في ذلك ولم يفد ، وجاء الأمر من قبل السلطان (طغرلبك) بالقبض على الرئيس الفراتي ، والاستاذ ابي القاسم القشيري ، وإمام الحرمين ، وابي سهل بن الموفق ، ونفيهم ومنعهم عن المحافل . وكان ابو سهل غائباً في بعض النواحي ، فلما قرأ الكتاب بنفيهم اغرى بهم الغاغة والأوباش ، فأخذوا بالاستاذ ابي القاسم القشيري والفراتي يجرونهما ويستخفون بهما ، وحبسا بالقهندز . وبقيا في السجن متفرقين اكثر من شهر (وأما امام الحرمين فإنه كان احس بالأمر فاختفى وخرج على طريق كرمان الى الحجاز) .

وفي شرح الاقناع[1] قال ابن عقيل : رأيت الناس لا

---

(١) ص ١٣٠٩ من مطولات كتب الحنابلة في الفروع .

يعصمهم من الظلم الا العجز ، ولا أقول العوام بل العلماء – كانت أيدي الحنابلة مبسوطة في ايام ابن يونس ، فكانوا يستطيلون بالبغي على أصحاب الشافعي في الفروع حتى ما يمكنوهم من الجهر بالبسملة والقنوت – وهي مسألة اجتهادية – فلما جاءت ايام النظام ، ومات ابن يونس وزالت شوكة الحنابلة، استطال عليهم أصحاب الشافعي استطالة السلاطين الظلمة ، فاستعدوا بالسجن ، وآذوا العوام بالسعايات والفقهاء بالنبذ بالتجسيم ، (قال) فتدبرت أمر الفريقين ، فاذا بهم لم تعمل فيهم آداب العلم ، وهل هذه الا افعال الاجناد يصولون في دولتهم ، ويلزمون المساجد في بطالتهم ، اه .

ولدينا من القصص في عجائب ما روى التاريخ من التعصب ما لا يسعنا الا امساك القلم عن نشره إبقاءً على هذه البقية الباقية ، وفي الاشارة ما يغني عن الكلم ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

وكل ذلك من التفرق الذي نهى عنه الدين ، لما يستتبعه من الازراء التي تعمل في اساسه المتين ، ويكفي ما جنت وتجني الأمة من ويلاته الى هذا الحين ، حتى فشلت وذهب ريحها امام اعدائها الكافرين ، والمستعان بالله .

درء وهم واشتباه :

يقول بعضهم : ان مسلماً روى عن ابن عباس انه قال في

نجدة الحروري : لولا ان أرده عن نتن يقع فيه ما كتبت اليه ولا نعمة عين : قال النووي : كان ابن عباس يكرهه لبدعته وهي كونه من الخوارج .

والجواب انه لا يلزم من كراهة الفرد كراهة المجموع ، والا لما خرج لثقاتهم وعلمائهم الشيخان وغيرهما ، وهل يؤخذ الجمع بجريرة الفرد؟ على ان نجده ليس من رجال الرواية عند المحدثين، فقد ضعفه الذهبي في ميزان الاعتدال وقال عنه : ذكر في الضعفاء للجوزجاني ، على ان الحال وصل اليه في قومه أن يختلفوا عليه وينبزوه بالكفر كما تراه في كتاب الفرق للامام أبي منصور البغدادي ، والملل والنحل للشهرستاني وغيرهما ، فلا نعمة عين له – كما قال ابن عباس – ولو كان يكره كل خارجي لبدعته لما أخرج لاثباتهم أئمة السنة في الصحاح والمسانيد ، ويكفي ان الامام مالكاً رضي الله عنه عُد ممن يرى رأيهم كما رواه الامام المبرد في كامله[1] ومن عزا لك ما يأثره ، وأراك مصدره ، فقد أوقفك من المسالك على الصراط المستقيم .

ومن الغريب أن يستدل بعضهم على معاداة المبدعين بأمر النبي ﷺ بهجر الثلاثة الذين خلفوا، ورفض تكليمهم حتى تيب عليهم ، مع انه لا تناسب بين دليله والدعوى بوجه ما – لأن

---

(١) جـ ٢ .

البحث في الرواة المجتهدين الثقات المتقنين الذين مـا نبذ السلف مرويهم لرأي رأوه ، أو مذهب انتحلوه ، فهل كان المخالفون كذلك ؟ ومـا المناسبة بين قوم هجرهم النبي ﷺ لذنب محقق اعترفوا به حتى تيب عليهم – وقوم لا يرون مـا هم عليه الا طاعة وعقداً صحيحاً يدان الله به ، وتنـال النجاة والزلفى بسببه ، فالانصاف يا اولي الالبـاب الانصاف ، وحذار من الجري وراء التعصب والاعتساف .

غريب امر المتعصبين ، والغلاة الجافين ، تراهم سراعـاً الى التفكير والتضليل ، والتفسيق والتبديع ، وان كان عنـد التحقيق لا اثر لشيء من ذلك الا ما دعا اليه الحسد ، او حمل عليه الجمود وضعف العلم ، وجهل مشرب البخـاري ومسلم ، واصحاب المسانيد والسنن وهداة الأمة ، ولا قوة الا بالله .

ثمرة الرفق بالمخالفين :

قال بعض علماء الاجتماع : يتخلف فكر عن آخر باختلاف المنشإ والعادة والعلم والغاية. وهذا الاختلاف طبيعي في الناس، وما كانوا قط متفقين في مسائل الدين والدنيـا ، ومن عـادة صاحب كل فكر ان يحب تكثير سواد القائلين بفكره ، ويعتقد انه يعمل صالحاً ، ويسدي معروفاً ، وينقذ من جهالة ، ويزع عن ضلالة ، ومن العدل ان لا يكون الاختلاف داعياً للتنافر ما

دام صاحب الفكر يعتقد ما يدعو اليه ، ولو كان على خطأ في غيره ، لأن الاعتقاد في شيء اثر الاخلاص ، والمخلص في فكر ما اذا اخلص فيه يناقش بالحسنى ، ليتغلب عليه بالبرهان ، لا بالطعن واغلاظ القول وهجر الكلام ، وما ضر صاحب الفكر لو رفق بمن لا يوافقه على فكره ريثما يهتدي الى ما يراه صواباً ، ويراه غيره خطأ ، او يقرب منه ، وفي ذلك من امتثال الاوامر الربانية ، والفوائد الاجتماعية ، ما لا يحصى . فان اهل الوطن الواحد لا يحيون حياة طيبة الا اذا قل تعاديهم ، واتفقت على الخير كلمتهم ، وتناصفوا وتعاطفوا ، فكيف تريد مني ان اكون شريكك ، ولا تعاملني معاملة الكفؤ على قدم المساواة .

دع مخالفك — ان كنت تحب الحق — يصرح بما يعتقد ، فاما ان يقنعك ، واما ان تقنعه ، ولا تعامله بالقسر ، فما قط انتشر فكر بالعنف ، او تفاهم قوم بالطيش والرعونة . من خرج في معاملة مخالفه عن حد التي هي أحسن، يحرجه فيخرجه عن الأدب ويحوجه اليه — لأن ذلك من طبع البشر مهما تثقفت أخلاقهم ، وعلت في الآداب مراتبهم . وبعد فان اختلاف الآراء من سنن هذا الكون ، وهو من أهم العوامل في رقي البشر ، والأدب مع من يقول فكره باللطف قاعدة لا يجب التخلف عنها في كل مجتمع. والتعادي على المنازع الدينية وغيرها

من شأن الجاهلين لا العالمين ، والمهوسين لا المعتدلين اه . مع تلخيص وزيادة .

ولا يخفى ان الأصل في هذا الباب قوله تعالى « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن » وقوله سبحانه « وقولوا للناس حسنا » وقوله جل ذكره: (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون)ولا تنس ما أسلفنا عن السلف في تفسيرها.

حملة الاعلام المحققين على المتفقهة المكفرين :

لما استفحل الرمي بالتكفير والتضليل لخيار العلماء في منتصف قرون الألف الأولى من الهجرة ضجت عقلاء الفقهاء ، وصوبت سهام الردود في وجوه زاعمي ذلك، حتى قالت الحنفية (عليهم الرحمة) ما معناه : لو أمكن ان يكفر المرء في امر من تسعة وتسعين وجهاً ، ومن وجه واحد لا يكفر يرجح عدم التكفير على التكفير لخطره في الدين .

ولم يشتد الرمي بالتكفير والارهاق لأجله ، والارجاف به، في عصر من العصور مثل القرن الثامن للهجرة . ومن سبر تاريخ

الحافظ بن حجر المسمى (بالدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) أخذه من ذلك المقيم المقعد ، اذ يرى ان العالم الجليل الذي هو زينة عصره ، وتاج دهره، كان لا يأمن على نفسه من الإفك عليه ، والسعاية به ، فيما يكفرُه ويحل دمه، حتى صار يخشى على نفسه من أخذت منه السن ، واقعده الهرم ، وأفلجته الشيخوخة ، ولا من راحم أو منصف – كما تقرأ ذلك في ترجمة علاء الدين العطار تلميذ الامام النووي ، وانه مع زمانته ، وكونه صار حلس بيته، يتأبط دائماً وثيقة أحد القضاة بصحة إيمانه وبراءته من كل ما يكفره ، ولقد أريقت دماء محرمة ، وعذبت أبرياء بالسجون والنفي والاهانات باسم الدين ، وروعت شيوخ وشبان أعواماً وسنين ، حتى عج لسان حالها وقالها بالدعاء الى فاطر الأرض والسموات ، بكشف هذه الغمم والظلمات ، ولم يزل سبحانه يملي لها ويستدرجها في غيها ، ولم تحسب للأيام ما خبىء لها في طيها ، الى ان امتلأ إناؤها ، وحان حصدها وافناؤها ، فأخذها الله وهي ظالمة جائرة ، ودارت على دولتها الدائرة ، ومحق الله بفضله تلك الدولة المجنونة الجاهلة ، وأورثها للدولة الصالحة العاقلة ، فأمنت الناس على أنفسها ودمائها ، وذهبت عصبة الجمود بزبدها وغثائها ، سيقول بعض الناس ممن تغره القشور ، ولم تقف مداركه على لباب روح العصور : ان تلك الدماء المراقة ، والأرواح المهدرة ، لم يحكم عليها الا بالبينة

والشهود ، التي بمثلها تقام الحدود ، وهل بعد ذلك من ملام أو جحود ، يقول ويجهل أو يتجاهل أن التعصب يحمل على الأخذ بالظنة ، او الايقاع بالشبهة ، وان المتطوعة بالشهادة قد يحملهم على اختلاقها ظن الاجر بنصرة الدين ، بقتل هؤلاء المساكين ، لاسيا إذا دفعوا بتشويق المتصولحين والمتمفقرين[1] ، والحشوية البكائين ، احتيالاً وقنصاً للمغفلين ، ولقد استفيض عن كثير من هؤلاء الضالين المضلين ، الاغراء بقتـــل الداعين الى الكتاب والسنة والمجاهدين في الاصلاح العاملين ، على ان قاعدة المحققين هي عدم البت في أمر تاريخي الا بعد تعرفــه من اطرافه ، ومراجعة عدة اسفار للوقوف على كنهه وحقيقته ، والاشراف على غثــه وسمينه ، ووزنه بميزان العقول السليمة ، والقواعد الاجتماعية المعقولة – كما اشار اليــه الامام ابن خلدون في مقدمته .

نحن لم نصم أعمال اولئك بالظلم والجور والبغي الا لما فضح نبذاً منها الامام زين الدين بن الوردي الشهير صاحب البهجــة ، واللامية ، والديوان ، والمقامات ، فقد شفى بالحقيقة الأوام ، وأوضح عن مكر أولئك بالتمويه والايهام ، في مقالة بديعة

(١) المتمفقر : كالمتمسكن مدعي الفقر اي التصوف وليس من أهله .

أنشأها في القاضي الرباحي المالكي[1] سماها (الحرقة للخرقة) ولا بأس بنقل جمل منها تأييداً لما قلناه ، قال رضي الله عنه :

« أما بعد حمد الله الذي لا يحمد على المكاره سواه، والصلاة والسلام على نبيه محمد الذي خاف مقام ربه وعصم من اتباع هواه ، وعلى آله وصحبه الذين بذل كل منهم في صون الأمة قواه ، وسلمت صدورهم من فساد النيات وإنما لكل امرىء ما نواه ، فإن نصيحة أولي الامر تلزم ، والتنبيه على مصالح العباد قبل حلول الفساد أحزم ، والمتكلم لله تعالى مأجور ، والظالم ممقوت مهجور، وتحسين الكلام لدفع الضرر عن الاسلام عبادة، والنثر والنظم للذب عن اهل الاسلام من باب الحسنى وزيادة ، وجرحة الحاكم الاعراض بالاغراض صعبة ، اذ نص الحديث النبوي ان حرمة المسلم اعظم من حرمة الكعبة، ومخرق خرقته مذموم ، ولحم العلماء مسموم ، « وهذه رسالة » أخلصت فيها النية ، وقصدت بها النصيحة للرعاة والرعية ، أودعتها من جوهر فكري كل ثمين ، وناديت بها على هزيل ظلم أبناء جنسي

---

(١) راجعها في ص ١٩٠ من المجموعة الأدبية التي طبعت في مطبعة الجوائب عام ١٣٠٠ هـ ، مشتملة على لامية العرب وشرحها وشرح المقصورة الدريدية ، وديوان ابن الوردي ، وديوان الخشابي ورسائله ،

منادادة اللحم السمين ، لكن جنبتها فحش القــول اذ لست من أهله ، وخلدتها في ديوان الدهر شاهدة على المسيء بفعله ، ورجوت بها الثواب ، نصرة للمظلوم ، وغيرة على حملة العلوم ، وسميتها : (الحرقة للخرقة) فقلت : اعلموا يا ولاة الامر ، ويا ذوي الكرم الغمر ، أبقاكم الله بمصر [1] للأمة ، ووفقكم لدفع الاصر وبراءة الذمة ، ان حلب قد نزعت للزبدة ، ووقعت من ولاية التاجر الرباحي في خسر وشدة ، فاض سلب الهجوع ، وسكب الدموع ، وأخاف السرب ، وكدر الشرب ، بجراءته التي طمت وطمت ، وعاميته التي عمت وغمت ، وفتنتـــه التي بلغت الفراقد ، وأسهرت الف راقــد ، ووقاحته التي أدهشت الألباب ، وأخافت النطف في الاصلاب ، فكم لطخ من زاهد ، وكم أسقط من شاهد ، وكم رعب بريا ، وكم قرب جريا ، وكم سعى في تكفير سليم ، وكم عاقب بعذاب أليم ، وكم قلب ذائب ، بنائبة توسط بها عند النائب ، فامتنعت الأمراء عن الشفاعة ، وظنوا هم والنائب ان هذا امتثال لأمر الشرع وطاعة :

يا حامل النائب في حكمه ان يقتل النفس التي حرمت

غششته والله في دينـــه بشراك بالنار التي أضرمت

---

(١) كانت مصر في عهد المؤلف وهو القرن الثامن عاصمة دولة المماليك .

(الى ان قال الزين بن الوردي) ثم انه فسق مفتياً في الدين، وفضح خطيباً عـلى رؤوس المسلمين ، (ثم قال) يحب إثبات الردة والكفر ، كحب الدنانير الصفر :

حاكم يصدر منه   خلف كل الناس حفر

يتمنى كفر شخص   والرضا بالكفر كفر

(ثم قال) اذا وقع عنده عالم فقد وقع بين مخالب الأسود، وأنياب الأفاعي السود :

أدركوا العلم وصونوا أهله   من جهول حاد عن تبجيله

إنما يعرف قدر العلم من   سهرت عينـاه في تحصيله

(ثم قال) ما أقدره على التسفير ، وما أسهل عليه التفسيق والتكفير ، كم دعا الى بابلة فما ارتاح الى الباب ، ونراه حيران لعدم الرقة فإذا قيل له فلان قد كفر طاب ، يحبس عـلى الردة بمجرد الدعوى ، ويقوي شوكته على أهل التقوى ، قـد ذلل الفقهاء والأخيار ، وجرأ عليهم السفهاء والأغيار :

يحبس في الردة مـ   ن شاء بغير شاهد

لا كان من قاض حكى الـ   فقاع جـد بادر

اراح الله من تعرضه ، وصان عراض الأعراض عن تعرضه » يقصد بذلك أهل الدين ، والقراء المجودين .

جرحت الأبرياء فأنت قاض
على الاعراض بالأغراض ضاري

ألم تعلم بأن الله عدل
« ويعلم ما جرحتم بالنهار »

هذا بعض ما جاء في رسالة الامام ابن الوردي التي هي أشبه بمقامة بديعية ، وكلها حقائق صادقة ناطقة بما كان عليه تعصب قضاة ذاك الوقت ولا سيما المالكية منهم . ولقد كان قضاة المذاهب يحيلون الأمر في التعزير والتأديب الى القاضي المالكي لما اشتهر في الفقه المالكي من مضاعفة النكال ، وشدة التأديب في باب التعزير ، اذ بسط للقاضي يده فيه بسطاً لم يوجد في مذهب غيره ، فلذا كان محبو الانتقام والتشفي ، يعمدون إلى إحالة القضية الى القاضي المالكي لما يعلمون ما وراء قضائه — مما فصل بعضه الامام ابن الوردي كما قرأت — على ان الأمر في التعصب لم يقف عند القاضي المالكي وحده ، لنتعصب ضده ، وإنما كان هو الأقوى تعصباً ، والأشد تصلباً ، والا فإن مظهر ذاك العصر كان التصعب لجميعهم ، فقد حكى الشيخ الشعراني رحمه الله تعالى في مقدمة طبقاته الكبرى المسماة بلواقح الأنوار

ما مثاله : « وقد أخبرني شيخنا الشيخ أمين الدين امام جامع الغمري بمصر المحروسة ان شخصاً وقع في عبارة موهمة للتكفير، فأفتى علماء مصر بتكفيره ، فلما أرادوا قتله قال السلطان جقمق : هل بقي أحد من العلماء لم يحضر ، فقالوا نعم الشيخ جلال الدين المحلي شارح المنهاج ، فأرسل وراءه فحضر ، فوجد الرجل في الحديد بين يدي السلطان ، فقال الشيخ : ما لهذا ، قالوا : كفر ، فقال : ما مستند من أفتى بتكفيره ، فبادر الشيخ صالح البلقيني من مشاهير الشافعية — وقال قد أفتى والدي شيخ الاسلام سراج الدين في مثل ذلك بالتكفير ، فقال الشيخ جلال الدين رضي الله عنه : يا ولدي أتريد ان تقتل رجلاً مسلماً موحداً يحب الله ورسوله بفتوى أبيك ؟ حلوا عنه الحديد ، فجردوه وأخذه الشيخ جلال الدين بيده وخرج السلطان ينظر ، فما تجرأ أحد يتبعه رضي الله تعالى عنه .

وقد عد الشعراني من الاعلام الذين أكفرهم الجامدون المتعصبون ما يقرب من الثلاثين (فمنهم) القاضي عياض اتهموه بأنه يهودي لملازمته بيته للتأليف نهار السبت وذكر ان المهدي قتله (ومنهم) الامام الغزالي كفره قضاة المغرب ، وأحرقوا كتبه ، (ومنهم) التاج السبكي رموه بالكفر مراراً وسجن أربعة أشهر[1] ، وكل هذا انما كان بزعم المتعصبين بشهادات

---

(۱) ذكر السبكي محنته هذه في آخر منظومة له في الفقه ، عندي الكراسة الأخيرة منها

وأقضية وفتاوي، ولكن سرعان ما فضحهم التاريخ ، وكشف عوارهم كما حكاه الشعراني وغيره ، والحمد لله الذي جعل الباطل زهوقاً .

وهكذا يمر بتواريخ تلك القرون ما لا يحصى من حوادث من أقيمت عليهم الفتن ، واتهموا بما اتهموا به ، مع ان الحدود تدرأ بالشبهات ، ونعني بالحدود ما نص عليه في الكتاب العزيز والسنة الغراء ، فاذا كانت في تلك المكانة وقد شرع فيها محاولة درءها بالشبهات ، فكيف بحدود لا سند لها الا بالاجتهاد ، وليس لها أصل قاطع ، ولا نص محكم ، فلا ريب انها أولى بالدرء ، وأجدر بالدفع ، ولا يدري المرء ما الذي حملهم على نسيان هذه الموعظة حتى عكسوا القضية ، وأصبحوا يكبرون الصغير ، ويعظمون الحقير ، ويهولون الأمور ، ويدعون بالويل والثبور ، مما لا يقومون بعشره للمنكرات المجمع عليها ، والكبائر التي يجاهر بها ، فلا حول ولا قوة الا بالله .

ولما تشددت القضاة المالكية في هذا الباب ، اصبحوا هدفاً لأولي الالباب ، حتى قال الامام ابن الوردي في ذاك القاضي المتقدم الرباحي : ان المالكية بدمشق كتبوا اليه يا مغلوب ، لقد بغضت مذهب مالك الى القلوب ، وقطعت المذاهب الأربعة عليه بالخطأ ، وزالت بهجته عند الناس

وانكشف الغطا ، الخ . والسبب في ذلك مـا ابتدعه الملك الظاهر برقوق من توظيف قضاة أربعة على المذاهب الأربعة مما لم يعهد قبله في دولة من الدول ، حتى نشأ من ذلك ما نقمه عليه الأعلام ، وعدوه من التفرقة في الاسلام ، قال التاج السبكي في طبقاته[1] في ترجمة قـاضي القضاة بالديار المصرية تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الاعز الشافعي المتوفى سنة ٥٦٦ ما مثاله: وفي أيامه جدد الملك الظاهر القضاة الثلاثة في القاهرة، ثم تبعتها دمشق وكان الأمر متمحضاً للشافعية فلا يعرف ان غيرهم حكم في الديار المصرية منذ وليها أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي في سنة ٢٨٤ الى زمان الظاهر إلا أن يكون نائب يستنيبه بعض قضاة الشافعية في جزئية خاصة ، وكذا دمشق لم يلهـا بعد أبي زرعة المشار اليه الا شافعي غير التلاشا عوني التركي ، الذي وليها يومات وأراد أن يجدد في جامع بني أمية اماماً حنفياً ، فأغلق أهل دمشق الجامع وعزل القـاضي[2] (قـال السبكي)

---

(١) ج ٥ ص ١٣٤ .

(٢) تأمل هذا التعصب واسترجع وحوقل اين غاب عنهم فضل سائر الأئمة المتبوعين الاربعة وغيرهم ، وكيف نسوا ان الناس عيـال عليهم تستمد من بركة فقههم واستنباطهم وتأصيلهم وتفريعهم ؟ ما أجهد قوماً يزعمون انهـم تعبدوا بمذهب واحد او اتباع امام واحد ، أوما علموا ان كلهم من رسول الله ملتمس ، وان الله تعالى انمـا تعبد الناس بتنزيله الكريم ، وهدي نبيه المعصوم .

واستمر جامع بني أمية في يد الشافعية - كما كان في زمن الشافعي رضي الله عنه (قال) ولم يكن يلي قضاء الشام والخطابة والامامة بجامع بني أمية الا من يكون على مذهب الاوزاعي الى ان انتشر مذهب الشافعي ، فصار لا يلي ذلك الا الشافعية (ثم قال السبكي) وقد حكي ان الملك الظاهر رؤي في النوم فقيل : ما فعل الله بك ، قال عذبني عذاباً شديداً بجعل القضاة أربعة ، وقال فرقت كلمة المسلمين » اه .

ولا يخفى على ذي بصيرة ما حصل من تفرق الكلمة ، وتعدد الامراء ، واضطراب الآراء ، وقد قال أبو شامة لما حكى ضم القضاة ، انه ما يعتقد ان هذا وقع قط : قال السبكي: وصدق فلم يقع هذا في وقت من الاوقات ، (قال وبه حصلت تعصبات المذاهب ، والفتن بين الفقهاء : فانه يؤيد ما قدمناه من اتخاذ هذه آلة للفتن والتشفي من المخالفين ، حتى أدال الله من تلك الدولة السلطان سليم خان فنسخ كل ذلك ، وقصر الامر على قاض حنفي واحد ، ولا ريب ان هذا كان من النعم الكبيرة ، اذ قمعت به فتن خطيرة ، وحسمت به شرور وفيرة ، نعم لم يزل في الأمر حاجة الى الكمال ، وهو سعي أولي الحل والعقد بعقد مؤتمر علمي من كبار فقهاء المذاهب المعروفة ، وتأليف مجلة تستمد من فقه سائر الائمة الاربعة وغيرهم مما فيه

رحمة ويسر ، ومشي مع المصالح والمنافع ، ودفع المضار في أبواب المعاملات ، فبذلك تظهر محاسن الدين في الاقضية والاحكام ، ويعرف أنه دين المدنية في كل زمان ومكان الى قيام الساعة وساعة القيام ، وان اليوم الذي تتحقق فيه هذه الامنية لهو أسعد الايام ، والمستعان بالله ذي الجلال والاكرام اهـ .

فهرس

ميزان الجرح والتعديل	٣
منشأ النبز بالابتداع	٤
من شهر الرواية عن المبدعين وقاعدة المحققين في ذلك	٥
آفات الجرح الا بقاطع	٦
الوجوه التي تعرف بها ثقة الراوي	٧
ايضاح في حكمة الرواية عن المبدعين	٨
عقوق الخلف بهجر مذهب السلف	٩
رد القول بمعاداة المبدعين	١١
رد القول بتفسيق المبدعين	١٣
خطر النبز بالفسق ومعناه	١٤
جواب شبهة	٢٥
جواب شبهة أخرى	٢٦
رفع وهم في عبارة البخاري	٢٩
درء وهم واشتباه	٣٥
ثمرة الرفق بالمخالفين	٣٧
حملة الاعلام المحققين على المتفقهة المكفرين	٣٩